جوانب

من اهتمامات اليابانيين في الدراسات العربية – الإسلامية (قراءة في الاستعراب الياباني)

أ.د. مرتضى النقيب / قسم التاريخ / كلية الآداب

الغرض من هذا البحث التقدم بحوار أكاديمي حول الدراسات التاريخية العربية في اليابان وتوجهاتها .بهذا العنوان أنا لا اقصد الدراسات الأسيوية التي ظهرت باسم الكتاب اليابانيين عن الإسلام في المناطق الأسيوية اليابانية المحتلة ،ولا الدراسات الأدبية كذلك والروايات وأدبياتها ،حديثي يدور حول اهتمامات ومساهمات الاكاديميين اليابانيين للدراسات العربية الإسلامية في المؤسسات اليابانية التعليمية القائمة وتاريخها ،من تلك التي تملكها شركات ومشاريع صناعية كبرى مسؤولة عن نشأتها وتمويلها .

<u>في بعض الملاحظات الأساسية :</u> لا يخفى على احد إن الدراسات العربية في اليابان في وقتنا الحاضر هي حالة متقدمة في الدراسات الشرقية ، في حقيقته موضوع واسع متعدد الجوانب ، لا يمكن حصر كل خصوصياته في هذا البحث الأكاديمي المختصر ، مع إنه يمكن ان نميز تحقيباً بين فترتين من المشهد الثقافي الياباني في الدراسات العربية الإسلامية شئنا أم أبينا الحوار.

ملاحظة أولى لا يمكن تجاهلها من لدن أي باحث متبصر بهذا الشأن تخص تلك الصلة الشديدة بين التحولات السياسية التي ظلت تشهدها اليابان وميزت حكم الإمبراطورية اليابانية خلال المرحلة الاستعمارية اليابانية وبين مسار وواقع الدراسات العربية التي ظهرت في اليابان من حينئذ ،والتي من خلالها جاء الاهتمام بتاريخ الإسلام السياسي والديني وصلته بالدراسات العربية المتداولة مفادها إن المؤسسات التعليمية اليابانية التي تضطلع بنشر الثقافة والعلوم بين الدارسين اليابانيين لم تكن مستقلة في خصوصياتها يوما ما ، لا في ما تقدمه من كتابات أوفي توجهاتها الفكرية لسبب بسيط هو إن المؤسسات التعليمية القائمة هي مؤسسات ومدارس خاصة (Private School)تؤسس وتمول مباشرة من قبل الشركات والمشاريع الصناعية الكبرى وتتحكم في سياستها العلمية والثقافية الفئة السياسية الحاكمة ،لذا تظل هذه المؤسسات التعليمية مؤسسات غير مستقلة تخضع في توجهاتها لمتطلبات الهيئة المتحكمة بفعالياتها ماليا وإداريا .ولا غرابة في ذلك لان الإدارات السياسية الحاكمة هنا ،شأنها شأن كل الأوقات كانت تملي في برامجها لون سياستها وتوجهاتها التي كانت تضطلع بمهمتها الطبقة الأكاديمية العاملة بمؤسساتها ومدارسها الخاصة ،في ضمن إطار السياسة الثقافية العامة وفي المناطق الإسلامية التابعة لمستعمراتها الآسيوية (ماليزيا واندونيسيا وغيرها).

هذا الوضع الثقافي السياسي في الدراسات العربية تغير كثيرا في أعقاب إنتهاء الحرب العالمية الثانية وخروج اليابان من الدائرة الاستعمارية النشطة في محيط آسيا . وبطبيعة الحال يفسر هذا تخلي اليابان عن السياسة الاستعمارية التي كانت تتبعها هناك مؤسساتها الى الأبد إزاء الوضع الإنساني الجديد للبلاد .

ملاحظة ثانية متداخلة هنا هي انه رغم هذا الواقع الثقافي المبكر للتجربة الثقافية اليابانية في الدراسات العربية ،فان الاستقلال الثقافي للمفكرين بشأن كتاباتهم عن حقل الدراسات العربية ميز هذه الفترة بشيء ملفت للنظر ،الذي شهد تحرر كتاباتها عن تبعية الاستشراق الغربي ،وكذلك في اثر المسيحية المتشددة عليها ،وأضحى التوجه الجديد يميز كتاباتهم وإسهاماتهم عن ما قدمه أسلافهم اليابانيون في تقليدهم الاستشراق الغربي بحق الدراسات العربية والإسلامية . وفيما عدا ذلك، ظل الأكاديميون اليابانيون متفقون مع إقرانهم الغربيين في تبني المنهج العلمي الغربي والممارسة النقدية اللازمة في نقد وتوظيف النصوص على نحو ما تظهر كتاباتهم ودراساتهم العربية –الإسلامية . في ضوء هذا الإطار، ما هو واقع حال الدراسات اليابانية عن التاريخ العربي والإسلامي في الوقت الحاضر؟

المؤرخ الياباني في الدراسات العربية هذا اليوم مؤرخ محترف يفهم العربية جيداً ،إن لم نقل يتقنها ويجيد نقد النصوص وتوظيفها في العمل الكتابي وينطلق من نظرية او تفسير عملي في كتاباته التي يسعى لانجازها وملم كثيراً بحوادث التاريخ العربي ودولة الخلافة .وإذا كان الغرب من حقه أن يفخر بمستشرقين رواد من أمثال كولدزبهر وبرنارد لويس وهنري كوربات ،فان اليابانيين من حقهم إن يفخروا أيضا بأسماء يابانية لامعة تتساوى في شهرتهم شهرة أقرانهم الغربيين من أمثال توشهيكو ايزوتسو (Toshihko Izutsu) ، أو ساتو تسوجيتاكا(Sato Tsugitaka) وغيرهما من الاكاديميين اليابانيين المنتشرين في المؤسسات الجامعية – اليابانية .

بماذا نوصف الرؤية اليابانية في دراسة التاريخ العربي وازدهار مؤسساته وانجازاته ؟ اليابانيون صريحون في كتاباتهم عن التاريخ العربي، ولا يتحرجون من القول بان العرب خرجوا يوما من الصحراء وهدموا تلك القوتين البيزنطية والساسانية ، أقوى الدول المتقدمة حينها عندما أقاموا دولة الخلافة واكتسحوا مجتمعاتها البيزنطية والساسانية سلماً او عنوةً . مع ذلك ،فان اليابانيين لا ينظرون بدهشة الى تلك الانجازات العربية في الفتوح وحدها فحسب ، بل يجتهدون ما أمكن في تفسيرها ،وفي إظهار دور العناصر غير العربية في إدارتها وحتى الإشادة بعلمائها ومفكريها و سلاطينها من غير العرب. والأكثر أهمية إنهم لا يعمدون ، على عكس ما يلجأ إليه كثير من الأوربيين وبشكل مجحف ، في التقليل من أهمية الانجاز الذي تحقق على يد العرب والإسلام عند إقامتهم دولة الخلافة ، بشكل خاص دور وأهمية محمد في التاريخ الإنساني وصدق رسالته ، وفي أحيان أخرى شعورهم بالحيطة وقت اقترابهم من حدود الصين أيام الأمويين على حدود التركستان ،وكذلك في فهم عقلية الفرد العربي وفلسفته في الحياة على نحو ما صورها القرآن الكريم في آية من سورة الجاثية

"وما يهلكنا إلا الدهر"[1] ، في اشارة لموقف المشركين العرب من فكرة الحساب التي جاء بها الإسلام بعد الموت، وحسابات الله الواحد الأحد في الآخرة .

هذه الخصوصيات من العقلية اليابانية والمداد الياباني قلما نجدها هذا الوقت بين كتابات جمهور المؤرخين المحترفين سواء كانوا أوربيين او شرقيين ممن يتعاملون مع التاريخ الإنساني من منظور مادي عقيم قائم على التشويه وغياب التصديق في القول ، والإسلام في اليابان ظاهرة جديدة تعود الى العصور الحديثة انطلقت مع إهتمام اليابانيين باكتشاف ما يدور عليه الإسلام من عقائد وأصول وإهتمامات أخذت في البداية شكل الدراسات الدينية واللاهوتية مقارنة مع خصوصيات اليابانيين وخلفياتهم الأسيوية والبوذية والشينتاوية، وفيما بعد لمجالات الدراسات التاريخية ،سواء كانوا من أصول عربية او مسلمين من غير العرب المنحدرين من أصول إيرانية – فارسية، فيما ظلت كتاباتهم حتى وقت نضوجها تصطدم بعاملين لهما تأثيرهما السلبي على الدراسات اليابانية العربية الإسلامية ، هما عامل اللغة و الخلفية الدياناتية لليابانيين ، رغم قدرة العقل الياباني المبدع في ضبط وتجاوز ما يتراكم منها على أداء مهمة العمل الكتابي لدى اليابانيين .

ولابد من الإشارة أولا إن اليابان من الدول الآسيوية المعروفة بأصالة حضارتها وثقافتها وتطورها التكنولوجي الذي ساهم ولا يزال في تحديث المؤسسات الأكاديمية والاجتماعية لكثير من بلدان العالم العربي والشرق الأوسط ،بما فيهم العراق الجديد . هذه الدولة الشرق آسيوية المتقدمة في مجالات الحياة كافة والتي تنافس أكثر الدول الغربية تقدماً في العلوم والتكنولوجيا تزخر بالمؤسسات والمعاهد الأكاديمية التي تضطلع بتدريس التراث العربي والحضارة الإسلامية الى الفكر الفلسفي الاستشراقي وعلوم اللاهوت ، وتعرف بشخصيتها البارزة في اختصاصات التراث ومؤسساته وتطوير العلوم الإنسانية والاجتماعية المتقدمة . والأهم إنها تجتذب حالياً كثير من الطلبة اليابانيين والآسيويين وحتى الغربيين في هذه الاختصاصات ،فضلاً عن أعداد لا بأس بها من الطلبة والدارسين العرب للتدريب على برامج الدراسات العليا في اختصاصات التاريخ والفكر العربي- الإسلامي ، بعضهم بغية نيل الدرجات العليا من المؤسسات والمعاهد اليابانية المضطلعة بهذه الاختصاصات .

من هذه المؤسسات الأكاديمية اليابانية العاملة تحتل جامعة طوكيو وكلية الإلهيات ومعهد ومكتبة تويوبنكو Toyo Bunko ، أو مركز اليونسكو للدراسات الثقافية لشرق آسيا وجامعة طوكيو للدراسات الأجنبية مركز الصدارة في الدراسات العربية – الإسلامية التي لمع فيها عدد من المفكرين والمؤرخين اليابانيين الكبار على نحو عمل المفكر والثيولوجي الياباني الراحل توشيهيكو ايزوتسو (Toshihko Izutsu) (ت1993) ، أستاذ الفكر القرآني في جامعة كيو (Keio)، وكذلك الفلسفة الإسلامية في معهد الدراسات الإسلامية في جامعة مكجيل McGill بمونتريال –كيوبك ، ومنهم كذلك الشخصية اللامعة في حقل الدراسات المملوكية ساتو تسوجيتاكا (Sato Tsugitaka) ، أستاذ التاريخ والنظم المملوكية في جامعة طوكيو ومدير قسم البحوث السابق في مؤسسة تويو بنكو ، أو نشير الى

أستاذ الأديان البروفيسور سوسومو شيمازونو(Susumu shimazono) ، وأستاذ الدراسات العباسية في جامعة كيوشو شيميزو كازوهيروShimizu Kazohiru .

أما قبل أكثر من قرن ، وتخصيصاً منذ الحقبة الميجية في 1868، فلم يكن اليابانيون يعرفون عن الإسلام وشعوبه ومؤسساته سوى القليل ، مثل بعض التصورات والافتراضات الموروثة عن الغرب ومن مصادر مسيحية مضللة لا يعول عليها في دراسات الأكاديميين المحترفين لكونها تمثل وجهة النظر الغربية المعادية للإسلام من جهة ، وتعكس النظرة الدينية – السياسية المتأثرة جداً بالمسيحية وبالمفاهيم الاستعمارية الغربية عن الشعوب الإسلامية وحضارة الإسلام غير التقليدية من جهة أخرى.

من هنا يظل المسؤول الأساس الذي يرتبط بدراسة اليابانيين للإسلام والتاريخ الإسلامي هو كيف يدرس هؤلاء اليابانيون تاريخ الإسلام ، الذي ظل ينتشر بين شعوب آسيوية-شرقية كثيرة خضعت في عصر الإمبراطورية اليابانية للإحتلال والنفوذ الياباني بوجه خاص . وهل من وجهة نظر أكاديمية خاصة تميزهم في هذه المسألة ؟

إن التحولات السياسية التي وقعت في اليابان قبل وما بين الحربين أثرت بلا أدنى شك كثيراً او قليلاً على توجهات وبرامج الدراسات اليابانية عن الإسلام وشعوب الشرق الأوسط المسلمين التي تخضع للإسلام سياسياً وروحياً ،وفي تبني وجهات نظر بتلك الدراسات ربما تعكس لحد ما النزعة والخصوصية اليابانية لتلك الفترة ، وهي في حقيقة الأمر صورة ذاتية لما كانت عليه اليابان الحديثة حينئذ سياسياً وعقائدياً ،التي تذبذبت في دعمها للشرق العربي تارةً والغرب طوراً ،وانعكست دون أدنى شك على نوع وطبيعة دراساتها المستقبلية عن الإسلام ومؤسساته .

في هذا المحتوى يقول الأستاذ تورو ميؤرا ،أستاذ الدراسات الإسلامية "إن ما كان ينجز من بحوث قبل الحرب العالمية الثانية عن هذه المسألة لا يمكن الاتكاء عليه كثيراً لبناء كتلة من المعرفة تالية لحقبة الحرب ،لان وجهة النظر ذاتها ،كما يرى ميؤرا ،قد تغيرت من موقف سياسي لشرق أمام الغرب الى آخر ينطوي على غرب أمام الشرق والعكس بالعكس"[2]،فضلا عما صاحب ذلك من تبني الرؤية الغربية خلال حقبة ميجي الى فقدانها للقيمة العلمية والمعرفية عند تحول اليابان كدولة متحررة من الرؤية الغربية الى تبني نضالات العالم الثالث للتحرر الوطني في آسيا وإفريقيا التي انطبعت فيها الدراسات اليابانية حينئذ ، وهو موقف يختلف كما نعلم عن الاهتمامات التي سادت ما قبل كتابات الحرب العالمية الثانية[3]. فماذا لدينا هنا من ارث أكاديمي – ياباني حول الاسلام باختصار ؟

هناك كاتلوك او ببليوغرافيا عن الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية في اليابان أصدره معهد ومكتبة تويو بنكو (مركز اليونسكو للدراسات الثقافية لشرقي آسيا) باللغات الحية يغطي نتاج السنوات (1868 -1988)تحديدا بين عهدي ميجي وشوا، ويشكل مرجعاً مهماً للباحثين والأكاديميين على حد سواء . ومن محتواه يظهر إن هدف اليابانيين قبل التحول الى دولة استعمارية[4] كان منصبا على استكشاف التحولات في العالم المسلم لبواعث مختلفة،سواء كانوا من البلدان العربية او المسلمين من غير العرب ،لكن القصور فيها إنها لم تعتمد على مصادر مباشرة تمثل رؤية العرب المسلمين ،بل

ارتكزت على الدراسات الأوربية لهذه البلدان التي تميزت بتحيزها العقلي وتأثرها بالمفاهيم المسيحية بشكل خاص، الأقوال التي لم تصور النبي محمد صلى الله عليه واله وسلم ودعوته عن الإسلام ومبادئه على نحو صحيح لتأثرها بالنظرة الأوربية المسيحية – المتطابقة عن الإرث الإسلامي ورموزه الدينية والسياسية ، وهو موقف يختلف تماما عن الاعتقاد السائد لدى المسلمين الذي تتحكم به ثقافته الثابتة عن الثقافة الغربية والشرقية على حد سواء ، ويتبع ذلك ضرورة معالجة ما يطرح عن هذه المجتمعات المكونة لمعتقداته ومؤسساته من هذه الزاوية،وهو ما لم يؤخذ بنظر الاعتبار في دراسات الحقبة الميجية اليابانية ، التي اعتمدت على وجهة نظر الكتابات الغربية عن الإسلام وتبعياتها.

إن الدراسات الخاصة بالإسلام ومناطق انتشاره بقدر تعلقها بالعالم العربي بدأت بطبيعة الحال بدراسة تراث الإسلام ابتداء بالنبي محمد وعقائده كالقرآن والسيرة النبوية وجهاده في نشر العقيدة وانتهت بالتاريخ السياسي والإسلام او تاريخ دولة الخلافة (The Arab Caliphate)،والدول التي تفرعت عنها او قامت على أنقاضها من السلاجقة والمغول الايلخانيين في المشرق الى الأمويين والمماليك في المغرب ، وفيما بعد الإمبراطوريتين الصفوية والعثمانية ،انتهاء بمرحلة الحكم الاستعماري وبدايات الاستقلال الحديث .

في هذا المحتوى ،لدينا من الأدبيات اليابانية التي ساهمت في نشر الثقافة في اليابان عن الإسلام وبلدان العالم الإسلامي كل من الأعمال التالية التي نوردها بحسب ظهورها الزمني :

1) عمل توكاي سانشي (1856-1897)في رواية "مغامرة الجمال"،وفيما بعد مصنفه "تاريخ مصر الحديث" في 1889.

2) مصنف عمله يوشيدا باسم "استكشاف العالم المسلم :رحلات في بلاد فارس" ،وظهر في 1894.

3) مصنف لفورو كاو باسم "دليل الرحلة الى بلاد فارس " في 1891،وكلا المصنفين يسجلان وقائع الرحلة الدبلوماسية العسكرية اليابانية الى بلاد إيران .

4) كتابات الروائي الياباني الشهير توكو تومي روكا في مذكراته التي طبعت عام 1921 بعنوان "من اليابان الى اليابان " الذي رصد مشاهداته بعقلية مؤرخ محترف ،التحول الذي شهدته اليابان نحو الامبريالية، دعا فيه، حتى قبل وقوع تحولات جديدة في المصالح القومية اليابانية الى استقلال الدول المستعمرة من قبل دول أوربا الغربية مثل مصر ومناهضة النزعة العسكرية اليابانية المتسلطة حينئذ .

5) الأعمال المهمة التي قام بها كنيتشي ساكاموتو في بداية القرن العشرين ،نبه فيها الى نقد اسهامات الاستشراق المشوهة للإسلام ،وفي جملتها:-

أ - ترجمة للقرآن الى اليابانية في العام 1920

ب- كتاب عن سيرة محمد نشر في عام 1923 .وكان نوكاريا كايتين قد سبق ساكاموتو في 1905 النشر مصنف "محمد الغالب".ثم أعقبه في 1923 كيتسو كوشيمورا بإصدار كتاب مشابه باسم "محمد النبي المقدس"

6)وعن الدين الاسلامي صنف كاما ساغاوا مصنف باسم "الاسلام " ،وهو مصنف مهم انتقد فيه بشدة طريقة دراسة الأوربيين للإسلام القائمة على مفهوم المسيحي المعادي للعقيدة الإسلامية[5].

وفي حقول الأدب والشعر حصلت مساهمات مهمة في تراجم ألف ليلة وليلة ،ورباعيات الخيام والأعمال الخلدونية والصوفية المهمة

بعد انحسار فترة الجفاف الثقافي التي عاشتها اليابان في عقود القرن التاسع عشر وما بعدها ،ظهرت لدينا وفرة من المتخصصين اليابانيين في مجالات الدراسات العربية الإسلامية (Islamic Arabic and area studies) تزخر بهم المؤسسات والمعاهد اليابانية على حد سواء، أكاديميون يابانيون يديرون بكل اقتدار وبراعة وظيفة وأعمال مؤسساتهم الثقافية الأكاديمية المستقلة وتتولى مسؤولية البحث في الدراسات اللاهوتية والاجتماعية والوسيولوجية باصنافها ،وهي فوق كل شيء تنبع من اهتمامات الاختصاصيين اليابانيين بهذه الدراسات وتطويرها لما يمثل وجهة النظر اليابانية المستقلة بهذه التخصصات .

من هؤلاء المختصين البارزين سنقف قليلا عند عدد من رموز وعلماء المؤسسة اليابانية التعليمية في عالم الإسلام ،كل من الفيلسوف واللاهوتي الراحل ايزوتسو والأستاذ ساتو ،كبير مؤرخي جامعتيطوكيو وواسيدا ومعهد ومكتبة تويو بنكو، وأستاذ الاديان البروفسور شيمازونو من جامعة طوكيو .

بداية لقد حققت الدراسات العربية – الإسلامية من خلال العمل الأكاديمي المبدع لتوشيهكو ايزوتسو في مجالات الفلسفة والمشرقيات وعلم الكلام والكتابات القرآنية كل ما يميز قدرة هذا العالم الياباني الشهير وإسهاماته الإبستمولوجية والمعرفية بعلوم القرآن ومفاهيمه التي لم تحصل ان تكررت مع أعداد من المتبصرين اليابانيين الذين جاءوا و كتبوا من بعده في هذا الإختصاص الموسوعي من المختصين بعلوم الفلسفة الاسلامية. كان إيزوتسو[6]عالماً بارعاً واكاديمياً متمكناً للقدرة الكبيرة التي تميز بها في اجادته استخدام اللغات العربية والفارسية ،فضلا عن تمكنه من عدد اخر غير محدد من اللغات الآسيوية والأوربية الحية ،وهو ما ميز ،فيما عدا قدراته العقلية المتقدة ،اعماله عن نتاج أقرانه من المشتغلين في الدراسات العربية – الاسلامية . وتميز بشكل مقتدر جدا في فهم وإستيعاب وتفسير ما يستخدم في القرآن من مصطلحات قرآنية وثيولوجية- فلسفية جعلها منطلقا لإسهاماته ذات المرتكز السامانتكية والابستمولوجية. كل هذا جعله يحسن الخوض في هذه الاختصاصات لغة وكتابة ، ويتعامل مع الإلهيات والأصول واشتقاقات القرآن بقدرة عالم موسوعي يكتب في اصول الديانات وعقائدها.

وتمثل سنوات ما بين الخمسينات والتسعينات خلاصة لنشاط هذا العالم الياباني الفكرية،مثلما يتضح من المصنفات المهمة التي انجزها خلال تلك العقود الأربعة من نضوجه العقلي ،بلغ عددها بتقدير مترجمي حياته العشرات ندون منها الآتي :

1. مفاهيم الأخلاق الدينية في القرآن (1966) Ethico – Religious concepts in the Quran
2. مفهوم الاعتقاد في علم الكلام الاسلامي (1980) Concept of Belief in Islamic Theology
3. الله والانسان في القرآن 1980 God and man in the Koran
4. الصوفية والطاوية[7]:دراسة مقارنة في مفاهيم فلسفية – اساسية : Sufism and Taoism A comparative study of Key Philosophical concepts (1984)
5. الخلق ونظام العدم للأشياء :مقالات في الفلسفة الصوفية – الاسلامية . Creation and the Timeless order of thing :Essays in Islamic Mystical philosophy (1994)
6. باتجاه فلسفة زن البوذية (2001) Toward a philosophy of Zen Buddhism
7. اللغة والسحر :دراسات للوظيفة السحرية في الكلام (1956)من نشر معهد الدراسات الفيلولوجية في كيو[8].

Language and magic studies in the Magical function of speech

فضلا عن أن الاستاذ إيزوتسوكان قد انجز في 1958 أول ترجمة مباشرة للقرآن باليابانية من العربية ، وتشتهر ترجمته للوقت الحاضر بدقتها اللفظية وباستخداماتها الاكاديمية الواسعة .وعلى نحو ما اشرنا كان الراحل مقتدرا جدا في تعلم اللغات الاجنبية،وينقل عنه انه انجز قراءة القرآن (كاملا)بعد شهر فقط من بداية تعلمه العربية . كان لي حظ التتلمذ على يده في مرحلة الماجستير عندما درسنا معه درسا حول مفاهيم القرآن الكريم لا ازال اتذكر منها مقطعا يشرح فيه فلسفة الانسان العربي لما قبل الاسلام في الحياة والموت بإعتماده على الاية (الرابعة والعشرون)من سورة الجاثية "وما يهلكنا الا الدهر"[9]، مما يعكس الى أي مدى كان إيزوتسو قد نجح في فهم آراء الانسان العربي (أو إبن الجزيرة) في الحياة والموت، في مقابل تصوره فلسفة الاسلام من خلال آي الذكر الحكيم .

ومن الاساتذة اليابانيين المشهورين و نال شهرة عالمية بين المستشرقين والاساتذة المشرقيين على حد سواء عالم الاسلاميات والدراسات العربية البروفسور ساتو تسوجيتاكا، الأستاذ المتمرس بجامعة طوكيو وواسيدا (Waseda) وعميد معهد ومكتبة تويو بنكو الياباني سابقا .هذا العالم الياباني المتبصر يستحق معالجة خاصة بين مجموعة المختصين اليابانيين في حقول الدراسات العربية والاسلامية والتنظيمات لأسباب كثيرة ، أولها إن البروفسور ساتو هو بلا مبالغة بارتولد اليابان بنوعية

وقيمة ما أنجزه للوقت الحاضر من مصنفات ودراسات في التاريخ المملوكي الوسيط وحقل علم التاريخ (Historiography)حتى يمكن ان يعرف على انه صاحب مدرسة هستريوغرافية[10]معاصرة تحمل اسمه عن جدارة علمية مقتدرة لكثرة أعداد تلاميذه من خريجي الدراسات العليا اليابانية (رغم قلة عدد المنتمين لهذه الدراسات لمحدوديتها)، مما يمثل وجهة نظر يابانية جديدة . في حقيقة الامر واحدة من اهم المدارس الهستريوغرافية اليابانية الوسطية المتميزة باهتماماتها الحقلية في مجالات العلوم الاجتماعية والاقتصادية والمدينة الاسلامية الوسطى ،وهو ما سمح له بان يكتب في مواضيع شتى من تاريخ دولة الخلافة نالت الصدارة والاستحقاق والافضلية في النشر بالدوريات الاوربية للمعرفة الواسعة التي يمتلكها في اللغات الشرقية والأوربية ،اضافة الى اليابانية والصينية وبعض اللهجات الآسيوية المحلية[11].فمن بين مقالاته الممتعة في هذا المحتوى ،نذكر مقالته عن مسح الارض والاصلاح المالي ايام السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون 690 – 741 في ال MTB،بعنوان "تطور النظام الاقطاعي لدى المماليك ،تحليل الروك الحسامي والروك الناصري"[12] ومقالته في عدد من دورية ال Orient بعنوان "النظام الاقطاعي في العراق تحت حكم البويهيين"[13] ،وفي الدورية نفسها مقال "السياسة الاقطاعية للسلطان بيبرس (الأول)[14].

ان ساتو كمتخصص في حقل الدراسات والنظم الاسلامية الوسطية هو ، من وجهة نظري ،وحسب ما يسمح به مقدار اطلاعي ،افضل عالم مشرقي في تخصص الدراسات الاسلامية كتب في موضوع الاقطاع وتغطية نحو من ستة قرون من دولة الخلافة ،وما بعدها ايام البويهيين والايوبيين والمماليك ،وليسمح له الميزة هنا ،عند تقويم اسهاماته العلمية حتى مع مؤرخ بارز مثل الراحل الفرنسي كلود كاهن CL. Cahen ،احد اشهر مؤرخي الشرق والغرب المحدثين ايام الحروب الصليبية [15].

ولدينا من اسهامات ساتو كتاب موسع لاطروحته عن الدولة والمجتمع الريفي في الاسلام في العصور الوسطى ، عمل من خلال متابعة دقيقة للمصادر المملوكية في رسم العلاقة بين السلاطين المماليك والمقطعين من الامراء وسواد الفلاحين[16] ، او كتابه عن التحضر الاسلامي في التاريخ البشري من خلال متابعة العلاقة بين السلطة السياسية بالشبكة الاجتماعية[17] ، فضلا عن اهتماماته في دراسة الجوانب الفيلولوجية والحضارية للمدن الاسلامية غير الاعتيادية ، كالكتاب الذي نشره عن جبالة ، المدينة الساحلية السورية وتاريخها وواقعها الحاضر[18].

إن الاسهامات غير المسبوقة من لدن البروفيسور ساتو هي محاولة لتغطية ما لم يتم دراسته لحد الان سوى جزئيا بشان التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي احدثها الاقطاع في العالم العربي بكل من المناطق الريفية ومجتمعاتها الحضرية ،في ضوء دراسته الدقيقة لمفهوم الاقطاع المشرقي وعوامل العمل به كنظام ذا صلة بحالة الارض وحدها ،بل ايضا بقدر تعلقه بعناصر المجتمع الحضري – الريفي ،مما له صلة قوية مع حالة الدولة المملوكية ومجتمعها الاسلامي الذي تاثر بنظام المدن واحوال الفلاحين وبنشاط المنظمات الصوفية السائدة فيها .وقد نبه ساتو الى ان هذا العصر ذا النظام

الاجتماعي التقليدي المتكامل قد اصبح هدفا لاصلاحات المحدثين المصريين بعد القرن التاسع عشر .وهو من هذه الوجهة ،يقول ساتو ان النظام الاقطاعي الذي ساد بدولة الخلافة او الدولة المملوكية لايشبه قرينة من الاقطاع الاوربي .

من هنا يحق لنا ان نعمم القول بان ساتو في ذهنيته كمؤرخ محترف تجاوز تأثيرات المستشرقين وانطلاقاتهم الفرضية في دراسة الدولة والمجتمع العربي ،مثال في حالات التحضر و المدينة الاسلامية ،وفي صلة ذلك بالريف وواقعه الاجتماعي الذي حدده الإسلام ، ليس هذا فقط ،بل عمل ساتو بالنظرة الموضوعية غير المنحازة الذي حدد فيها هذا المفكر الياباني البارز مفاهيمه الكتابية النابعة من قراءة دقيقة لإشكالات مصادر دراسته ودلالاتها، بما فيه قدرته على توظيف مادته بدقه متناهية ،طبقا لأصول المنهج العلمي في البحث والتدقيق بطبيعة الحال .

وفي حقل الاديان ،لدينا الأستاذ سوسوموشيمازونو (Susumu Shimazono) ، من كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بجامعة طوكيو ،الضليع بالديانه الشينتاوية واحد منتسبيها ، والذي يمكن القول عنه انه افضل باحث ياباني – اكاديمي كتب عن هذه الديانة الاسيوية ، التي تؤكد على فكرة العلاقة بين الدين والدولة من خلال شخصية الامبراطور ومفاهيم التضحية وهلاك الإنسان وفنائه . ينتسب شيمازونو الى عائلة مشهورة باصولها الطبية المتوارثة ، وقبل دراسته لحقل الاديان اراد شيمازونو ان يقلد افراد عائلته بدراسته الطب ، لكنه فضل التخصص في علم الاديان لانه اراد من خلال تخصصه هذا ان يفهم شرور الحياة البشرية ذات الصلة بالمجتمع الياباني وتبعياتها، فما هي الديانة الشيناوية وما صلتها بعبادةة الامبراطور الياباني ؟

اليابانيون قبل ان يقر لهم الدستور الياباني حرية الديانة كانوا من اتباع الديانة الشينتاوية التي لها رواج كبير بين معتقدات الناس وتتمتع بتاييد وحظور الامبراطور نفسه،الذي كان يقر بشنتاوية الدولة ونظامها السياسي الياباني ،وفي دفع اليابانيين نحو اجلال وعبادة الشخصية الامبراطورية بصورة دينية متزمتة. ان هذه الشينتاوية ،في بدايتها تمثل معتقدات شعبية غير واضحة ، ولا صلة لها بالبوذية . الا انها تحولت في نهاية القرن السابع عشر والثامن عشر الى قواعد ذات صلة بالبلاط الامبراطوري،وارتفع شانها بشكل خاص خلال عصر ميجي (1868 – 1912) [19]من خلال توحيد اهداف السياسة اليابانية بالدين ،وبعد خسارة اليابان في الحرب ،حاولت القوى السياسية الحاكمة استئصال الاثار السلبية الناجمة عن تطبيق الشينتاوية في البلاط ، فقررت بامر خاص منع ما يخص شينتاوية الدولة والاعلان الخاص بإنسانية الامبراطور في 1946/1/1.

هذه الملاحظات عن شخصيات الاكاديميين اليابانيين في الدراسات العربية واسهاماتهم ليست مستنفذة ، ولا تتضمن كثيرا من اسماء طلبتهم الذين برزوا في تلك الميادين التي اجتذبت اهتمامات هؤلاء الاكاديميين الجدد . هنا يبقى السؤال عن ماذا طوّر اليابانيون من معرفة في مجال الدراسات التاريخية - الاسلامية وماذا اضافوا ؟ وهل ان ما طوروه شيء يحمل خصوصية اليابانيين وخلفياتهم الاسيوية والبوذية والشيناوية ؟

اليابانيون قبل ان يتميزوا في مجال الدراسات التاريخية العربية ذات الصلة بعالم الإسلام (Islamic Studies)كانت كتاباتهم الاكاديمية تصطدم دوما بعاملين اساسيين لهما تاثيرهما المباشر على تطور الدراسات اليابانية وبرامجها ،هما كل من عامل اللغة والعامل المسيحي الغربي والخلفية الدياناتية.

في الجانب الاول نقول ان الدراسات العربية بدون توفر المعرفة اللغوية لحقل الدراسة وخلفياتها من الفارسية والتركية وبعض اللهجات المحلية الاخرى أمر عقيم،والشيء ذاته بالنسبة لتطلعات اليابانيين الفكرية في هذا الحقل المهم من الدراسة ذات الاهتمام المشترك لليابانيين وابناء العالم العربي . ولا يخفى ان اللغة اهم ادوات المؤرخ لكتابته بها يطلع المرء على المادة التي يبني عليها افكاره في الموضوع قيد التطوير.وقبل هذا تمثل لغة القرآن والحضارة التي يقترن بها ،ونحن نعلم بان عدم معرفة اللغة في حال الاختصاص في الاديان التي هي اساس قيام الحضارات غير ممكن . ومثل هذا الافتقار كان واضحا لدى المفكرين اليابانيين الاوائل وجرت محاولات على مستوى برامج المؤسسات والمراكز الاكاديمية اليابانية لتعلم العربية ومثيلاتها من الفارسية والتركية لملأ هذا الفراغ لكن تقدم قليل فقط تحقق في هذا المجال اكثره حصل في السبعينات من القرن الماضي ، وهو ما يمثل جيل البروفسور ساتو واقرانه وهو الجيل المبدع من المستعربين اليابانيين . من هنا جاءت الحاجة القائمة الى التبادل المستمر في الايفادات لتبادل الخبرات بين التدريسيين والطلبة اليابانيين في حقل الدراسات التاريخية الى العراق،والعكس في شد رحال العراقيين الكفوئين الى اليابان للوصول الى حصيلة جديدة من التعلم في اللغة اليابانية وآدابها ،ومن خلال برامجها المتداخلة ،يتم حينئذ تذليل هذه الصعوبات اللغوية القائمة بخطوات ثابتة .

اما العامل المسيحي الغربي والخلفية الدياناتية ، فاليابانيون بوقتنا الحاضر لا يتمتعون بديانة واحدة تمثلهم على نحو ما يقر الدستور الياباني حاليا بالحرية الدينية لليابانيين . اما في الماضي فقد لعبت البوذية والشينتاوية التي ليس لها صلة بالبوذية ، في صقل كثير من الافكار والقيم الروحية والعقائدية لدى اليابانيين .فالبوذية من اتباع جوتاما بوذا ،التي كانت قوية ايام العصور الوسطى ساعدت في نشر كثير من مفاهيم الرحمة والتسامح في العبادة والتمازج مع المظلوم لدى الانسان الياباني المتعلم .والشينتاوية لدى اليابانيين ،قبل اقرار الدستور بحرية الاديان ، تحتل مكانه خاصة بين العقائد الدينية لان كثير من اليابانيين حتى بعد تعديل الدستور ظلوا من اتباع الديانة التي كان لها (ولا يزال) رواج كبير بين الناس وفي البلاط ،وتتمتع بتاييد ومباركة الامبراطور الياباني نفسه ،الذي كان يقر بشنتناوية الدولة والنظام السياسي الياباني المرتبط بها الذي دفع اليابانيين نحو اجلال وعبادة شخصية الامبراطور وصورته الدينية وارتفع شانها بشكل خاص خلال عصر ميجي ، من خلال توحيد السياسة اليابانية بالعامل الديني .وقد ظل كثير من اليابانيين على ولائهم للشنتناوية ومبادئها حتى بعد اقرار قانون حرية الاديان بشكل رسمي في العام 1946 .

اما المسيحية فكان لها تاثيرها الواضح لدى المثقفين والاكاديميين اليابانيين الذين اخذوا بتاثير العامل المسيحي في كتاباتهم عن الاسلام ومحمد وانتشار المسلمين في المناطق المفتوحة العائدة للدولتين الساسانية والبيزنطية والتوسع صوب المشرق ايام الامويين وفي التبادل التجاري . وبموجب هذه الخلفية الدينية – السياسية للكتاب اليابانيين، فان الكتابات اليابانية بشأن التاريخ الاسلامي والفتوحات وما كتب عن مسلمي اسيا في فترة الحرب العالمية الثانية ،او فترة حرب اسيا والمحيط الهادي بالتسمية الحديثة (1931 – 1945) ،جاءت متحيزة على نحو ما يكتب اكيرا اوسوكي قوله "برغم ما لاقت الابحاث المعنية بالاسلام تشجيعا سياسياً ، يظل ما كتب الا في اجواء انتهازية ، ولم يكتب لها ان تستمر حتى تترسخ لها اسس ونظم البحث العلمي "([20]) ،عندما اتخذت الابحاث اليابانية مسارا جديدة في العلمية والمصداقية والموضوعية .

والخلاصة ان الحقول التي تغطيها الدراسات اليابانية عن الاسلام والعالم العربي تتناول العلوم الدينية واللاهوتية واللسانية ، كذلك العلوم الاجتماعية وعلم البلدان والدراسات الاثارية . الا ان من بين هذا المجموع للعلوم ، ابدع الاكاديميون اليابانيون بشكل ملفت للنظر في مجالات العلوم العقلية واللاهوتية والاجتماعية التي تدخل فيها الدراسات الاسلامية متأملين من متخصصيهم اسهامات جديدة في مجالات الهستريوغرافيا وعلم التاريخ .

الهوامش والتعليقات :

(1) القرآن الكريم الجزء(25) سورة الجاثية "الآية (24)"

(2) الدراسات الإسلامية والشرق اوسطية في اليابان، ص 56 – 57 .

(3) ذاته ،ص56 .

(4) اليابانيون كإستعماريين (امبريالست) بالنظرة الغربية – الامبريالية ، وعملوا على تطبيق ممارستهم الاستعمارية على شعوب آسيا المسلمة التي وقعت تحت الاحتلال الياباني مثل اندونيسيا وماليزيا بما يعكس الأساليب الاستعمارية الغربية في تعاملاتها مع المحتلين المسلمين .

(5) انظر عن هذه الأعمال تورو ميؤرا ،الدراسات الإسلامية والشرق اوسطية في اليابان، ص 49 – 54 .

(6) عالم وفيلسوف ياباني كبير ، ولد في العام 1914 وتوفي في 1993 ، متحدر من عائلة يابانية عريقة النسب ، موسرة جداً وينتسب هو والعائلة الى الديانة البوذية–من طائفة زن. سجل في البداية لدراسة الاقتصاد بجامعة كيو (Keio) ، لكنه انتقل لدراسة الادب الانكليزي ، واصبح بعد تخرجه في 1937 مساعد باحث بالجامعة ، ثم تخصص بالدراسات الاسلامية، وامضى الكثير من وقته بين طوكيو وجامعة مكجيل (Mcgill) بمونتريال ومعهد الدراسات الفلسفية–الملكية بطهران . وكان عالماً لايباري بالأخلاق والتواضع ، عطوفاً على طلبته ، ناجحاً جداً في تدريسهم .عن سيرته انظر:
Wikipedia, the free Encyclopedia: Background, works and Bibliography of Toshihiko Izutsu.

(7) الطاوية يعود تأسيسها الى لاوتسي ، وهي مع الكنفوشية والبوذية تشكل الأديان الثلاث في الصين .

(8) للتفاصيل انظر :- The free Encyclopedia : (توشيهكو ايزوتسو) .

(9) القرآن الكريم، الجزء الخامس والعشرون ، سورة الجاثية ، الآية(24): "وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت وتحيا ، وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون"

(10) هذه المدرسة تحمل خصوصيات مدرسة ساتو التاريخية التي عمل على انمائها وتوسيعها بين سنوات عمله في الستينات من القرن الماضي والوقت الحاضر .

(11) يجيد الاستاذ ساتو استخدام اللهجة العراقية التي تعلمها عندما كان يتدرب في بداية عقد السبعينات مع استاذ التاريخ الاسلامي الراحل الاستاذ صالح احمد العلي . وبالر غم من شهرة ساتو العلمية يظل الطلبة العراقيون واهل الاسلاميات عموماً لايعرفون سوى القليل عن هذا العالم الياباني الجليل لأسباب مختلفة اهمها الجهل بمعرفة ما ينشر لغةً وقراءة .

(12) انظر : MTB ، 37 (1979) ، ص ص 99–131 .

(13) Orient ، 18 (1982) ، ص ص 83–105 .

(14) Orient ، 22 (1986) ، ص ص85–104 .

(15) لسنا بصدد ذكر مؤلفا كان القيمة هنا .

(16)Entitled state and Rural Society in Medieval Islam (Sultans, Muqta's and Fallahun (Leiden: E.J. Brill, 1997).

(17) That is " Islamic Urbanism in Human History: Political power and Social Network (Kegan paul, 1996).

(18) With the title the Syrian coastal town of Jabala, its History and present situation (Tokyo, 1988).

(19) انظر سوسوشيمازونو ، اليابانيون والدين ، ورقة عمل يابانية–عراقية (تموز–2009) .

(20) انظر بحثه ، السياسة اليابانية تجاه المسلمين في فترة الحرب العالمية الثانية ،من وقائع كتاب العراق واليابان في التاريخ في التاريخ الحديث (بغداد : مؤسسة مرتضى/2010)، ص18 .